أصالة موسيقية عالمية

هيثم الشاعر

غادة شبير: أنا والألحان السريانية

كرّست غادة شبير مسيرتها الفنّية لتشجيع الأغنية العربية الكلاسيكية، الأمر الذي دفعها الى تحدّي صعوبة اداء العُرب والمقامات والتقاسيم الخ... الى التعمق بها وكان شغفها يزيد كلما تعمقت اكثر بدراساتها. غادة شبير، الصوت المتميز، ترى أنّ تحديث الألحان السريانيّة ليس سوى تشويه وجهل في دراسة هذه الألحان وتحليلها. حاورت «العمل» غادة شبير وجاء الحديث كالآتي:

لا تتبع الهارموني في التأليف، بل هي موسيقى من الروح، تدخل في النغمة وتعالجها أفقيّاً لتكون الجملة اللّحنيّة طبيعيّة، جميلة، قريبة من النفس، مليئة بالإرتجالات في الأداء والتنفيذ. الغربيّون يحتاجون الى سماع الكثير من الألحان المقامية والإرتجال والتقاسيم العربيّة، لذلك نراهم يتهافتون على سماع موسيقى كهذه. ومهما برع الشّرقيون في الغناء الكلاسيكي يبقى الغربيون بارعين الى حدٍّ أبعد. أمّا الموسيقى اللّيتورجيّة فلها مكانة كبيرة جدّاً وتقدير كبير في نفوسهم. ذلك أنّ هذا النوع من الموسيقى مرتبط باللّغة إرتباطاً وثيقاً. واللّغة قديمة جدّاً ممّا يحتّم إيقاعات غريبة وألحاناً غريبة أيضاً تتطلّب وقتاً لحفظها وهي في غاية الجمال، وهم يقدرون الجمال. كما أنّني قدّمت أكثر من ١٥٠ حفلة حتّى اليوم في أوروبا، وأؤكّد أنّني لم أغنّ يوماً سوى الألحان الشرقية واللّيتورجية السّريانية القديمة. ولم أغنّ يوماً لمستمعين غير أوروبيين في أوروبا.

■ من أين تستقين الأغنيات التي تؤدّينها عادة، وهل يمكن اعتبار أنّ الموسيقى العربيّة هي واحدة أم أنها تختلف بين بلد وآخر؟

هي ليسَت بأغنيات، بل موشحات وقصائد وأدوار ومواويل وليال، إلخ... أبحث طويلاً لإيجاد بعضها في كتب قديمة، وبعضها في تسجيلات نادرة وقديمة طبعاً، وبعضها في مخطوطات. الموسيقى طبعاً ليست واحدة، فهي تختلف بين بلد وآخر. فالموسيقى اللّبنانيّة والإيقاعات والمقامات مثلاً تختلف كثيراً عن الموسيقى والإيقاعات والأنغام التركية والمصريّة والتّونسيّة والعراقيّة... كما أنّ السّلالم الموسيقية تختلف وأبعادها أيضاً مختلفة.

العريقة والتي نفتخر بها، ومنها ما هو فعلاً دخيل، ولا علاقة له ولا صلة لا باللّيتورجيا ولا باللّحن الماروني. فالشعر أو الكلام أغلبه أحاسيس خاصّة والألحان ترانيم بسيطة ومنها يُنَفّذ بغية تقديمه ضمن حفل خاص ديني أو على شكل فيديو كليب خصوصاً بعد ظهور القنوات الدينيّة التي تتطلّب الكثير من هكذا أعمال لتكون على الفضائيات. أمّا عن تحديث اللحن السرياني فهو لا يأتي كتحديث أغنية خفيفة. اللّحن صعب جدّاً في تركيبته يتطلّب عمقاً ومقدرة لتحديثه. لقد عملت على الألحان السريانية أكثر من عشرين سنة ولم أرَ ضرورة لتحديثها لأنّ اللّحن في حدّ ذاته حديث في عناصره الفنّية والنادرة. أمّا ما يسمّونه اليوم تحديثاً لهذه الألحان فليس سوى تشويه وجهل في دراسة وتحليل هذه الألحان.

■ ما دور جامعة الروح القدس في الكسليك، في الموسيقى العربيّة واللّيتورجية؟

دور جامعة الروح القدس في الكسليك كان ولا يزال يكمُن في نشر وتقديم التراث الموسيقي الشرقي السرياني والماروني منه، والحرص قدر المستطاع على الحفاظ على هذه الأعمال والبحث مطوّلاً لإيجاد أعمال أخرى قديمة ونشرها. دور جامعة الروح القدس الكسليك علمي وثقافي وحضاري، فهي لأكثر من سبعين سنة تسجّل وتنشر التراث الديني والدنيوي حتّى أصبحَت المرجع الأهم في نشر التراث، حتى انّني أمام تدوين وتحضير أكثر من خمسماية لحن سرياني ماروني للدّراسة والمقارنة مع الحاننا الكنسيّة المارونيّة اليوم، وتغمرني سعادة كبيرة في اكتشاف ألحان لم يسبق أن سمعتها قط. والجامعة تعمل على دراسة هذه الألحان وتحليلها

غادة

■ في عصر الأغنية السريعة والفن التجاري، لماذا اخترت الفن الأصيل، وهل هناك من مكان لهذا الفن في وقتنا الحاضر؟

ليس هناك عصر لأغنية سريعة ولا عصر لأغنية بطيئة. هناك نمط معيّن من الغناء ولحن يمكن أن يكون جميلا أو لا. قديماً كان هناك الكثير من الألحان السّريعة وكما هو الحال اليوم فإنّنا نجد الكثير من الألحان البطيئة. ولكن يكمُن الموضوع في النّوعية، أي أنّ اللّحن سواء سَرُعَ أو بَطُؤ، إذا كانت عناصره جيّدة فهو لحن أصيل. كما أنّنا لا نستطيع الحكم اليوم على تلك الألحان، بل علينا أن ننتظر عشرات السّنين لأن التاريخ وحده ينصف. أمّا اختياري الفن الأصيل فلم يكن لإظهار صوتي وقدراته بل حاجة ذاتية لاكتشاف تراثي، بعيداً عن العناصر الداخلية لألحاننا ومقاماتنا العربية. وهذا كان يتطلّب منّي وقتاً طويلاً من البحث لاكتشاف الجمال الذي كنت في حاجة إليه. أمّا الفن التجاري فهو فن موجود منذ القدم ومعلوم ما هي أهدافه. فالمادة تلعب دوراً كبيراً اليوم والشهرة أيضاً، لذلك فإنّ الأعمال التجارية التي تصل بسرعة إلى مسامع الناس وإن كانت هابطة، وإن ماتت بعد فترة وجيزة، إلاّ أنّها تؤمّن لأصحابها الشهرة والمادة معاً. تبقى هذه الموسيقى حاجة للملاهي وللنفوس الخام غير المثقفة ونعود بموسيقانا إلى الجذور لنغرق في الكنوز المطمورة فنجد دائماً ما يُشبع أرواحنا ويرضي أذواقنا.

■ ما هو النوع الموسيقي الذي تقدّمينه لغير الشرقيين في الخارج، وهل من صدى للفن العربي والليتورجي في قلوب المستمعين غير العرب؟

هل تعتقد ان الشعوب الغربية او الاوروبية بحاجة الى سماع المزيد من الألحان الغربية؟ وهل تعتق دانهم بحاجة الى سماع الأغاني الكلاسيكية او الاوبرالية من فتاة شرقية؟ طبعاً لا، فهُم مثقّفون ويعلمون أنّ موسيقانا

■ بمَ يتميّز اللحن السرياني عن العربي وعن سواه من الألحان الليتورجية، وهل يمكن القول انّ اللحن السرياني هو عربي أم العكس؟

هذا السّؤال كبير جدّاً سأحاول الإجابة عنه بشكل موجز. ليس للّحن السّرياني علاقة باللّحن العربي، ولا للمقام السرياني علاقة بالمقام العربي، ولا الإيقاعات السريانية لها علاقة بالإيقاعات العربيّة. إلاّ أنّنا استعنّا بعناصر كثيرة من هذه الموسيقى وأدخلناها في موسيقانا العربية الشرقية لأصالتها ولإيقاعاتها الغنية والجميلة، ولحركتها المتّصلة. فنرى أن الرحابنة وسيد درويش ومحمد عبد الوهاب وزكي ناصيف وغيرهم تأثّروا كثيراً بهذه الألحان وجاءت موسيقاهم لتؤكّد على ما أقول. ويتميّز اللّحن السّرياني بنغمة مجدولة قصيرة وبلحن غالباً ما يكون قصيراً، وباعتماد نغمة واحدة في اللّحن الواحد وبإيقاعات بسيطة وأخرى مركّبة. ولا يمكن إدخال النمط الهارموني على هذه الموسيقى لأنّها تفقدها جمالها وفطرتها وخصوصيتها في الجدليّة النغمية في الأداء والتّحكّم بالجملة اللّحنية مهما تغيّرت أو تبدّلت.

■ كيف تقيّمين الألحان الدخيلة على الليتورجية المارونية بشقّيها الغربي وما يسمّى أيضاً باللحن السرياني الحديث؟

لست في موقع التقييم، لكنّي سأجيب عن السّؤال فقط من الناحية العلميّة. الألحان الدّخيلة على اللّيتورجيا المارونيّة السريانيّة، منها ما هو مدروس وينبع من أصالة ألحاننا التراثية لتكون يوماً للنشر مدوّنة في كتب وفي تسجيلات لخدمة التراث الديني. هذا العمل مثلاً يتطلّب سنين عديدة لإنهائه.

■ هناك عدد لا بأس به من المغنين والفرق الموسيقية وحتى الجوقات الدينية في لبنان والبلاد العربية التي تقدّم الموسيقى التي تقدّمين. فبماذا تمتازين عنها؟

لست ممن يشيدون بأنفسهم. هناك العديد من الفرق المحترمة التي تقدّم التراث الديني أو الدنيوي على طريقتها، منها ما أحترم عملها ولي عليها بعض المآخذ أو التّمنيات ومنها ما أقدّر عملها ليس للأصوات القويّة أو الجميلة أو المتمكّنة بل لأصالة برامجها التي تقوم على نشرها. دور الفرق الموسيقية والجوقات الدينيّة ليس فقط لتقديم أعمال جميلة نُبهر بها المستمعين بل البحث في التراث، وتقديم تراث عريق يبقى للأجيال الآتية ويثقّفها. أمّا أنا فدوري ليس لعرض جمال صوتي بل للبحث مطوّلاً وإيجاد أعمال لم تغنَّ بعد، وهذا هو ما أتميّز به. لا أحبّ أن أسجّل أعمالاً معروفة لذلك عملت مثلاً في مدمجي الأوّل موشحات على نشر العديد من الموشحات التي تغنّى لأوّل مرّة وهي قديمة جدّاً، وقيمتها في قدَمها وجمالها ورُقيّها، كما أنني أتميّز بأدائي لهذه الألحان التي تأتي كتتويج لدراسة عميقة في الألحان السريانية وتأثيرها إيجابيّاً على أدائي في الألحان الدينية كالموشحات والمواويل التي نلت عليها مؤخّراً ثلاث جوائز عالميّة وجوائز وشهادات تقدير من مصر وبريطانيا وغيرهما■